من الطوفان إلى سقوط نظام الأسد..

سيناريوهات منطقة الشرق ٢٠٢٥ في ضوء "تأثير الفراشة" و"أحجار الدومينو" ٢-٢

الأمناء/منصة مآلات:

تستعرض «مآلات" المسارات المحتملة لتداعيات التغيير في سـوريا وانهيار نظام الأسد على عدة دول وفاعلين في منطقة الشرق وعلى الرغم مـن زيادة جوانب عدم اليقين والتعقيدات الناتجة عن تأثر ملفـات المنطقة بتفاعل عدة عوامل لا تقتصر على التطورات في سوريا، إلا أن التأثيرات العميقة للتغيير في سـوريا – والتي مازالت قيد التشـكل بدورها – بات من الممكن تقديم قراءة أولية لها.

اليمن: هل يكون الحوثيون قطعة الدومينو التالية؟

برزت جماعة "أنصار الله" (الحوثيون) كقوة صاعدة في "محور المقاومة" الإيراني منذ السابع من أكتوبر 2023، إذ تضاعفت قدرات الحوثيـين الصاروخية وأصبحت أكثر فاعلية في تهديـد المصالح الإسرائيلية التجارية، فضلا عن عدم قدرة التحالف البحري المدعوم من واشنطن على تحييد تهديدات الجماعة بشـكل فعال، على الأقل حتى نهاية عهد بايدن. وقد سـاهمت ضربات الحوثيين للسفن والأهداف الإسرائيلية في تعزيز شرعيتهم محليا، كما ظهرت الجماعة كجهة فاعلة تتخطى السـاحة اليمنية وتمارس دورا مؤثرا في الإقليم، الأمـر الذي قد يدفع إيـران إلى زيادة دعمها للحوثيين تعويضاً عن خسـائر محور المقاومة في سوريا ولبنان.

لا شـك أن تنامي قوة الحوثيين سيظل محل قلق دول الخليج التي ترى في تحول الجماعة إلى قوة لا يستهان بها تهديدا مباشرا لأمنها. كما أن العلاقات الخاصة التي تطورت بين الحوثيين وكل من روسـيا والصـين تضعها في بؤرة التهديدات المحتملة للمصالح الغربية التجارية بغض النظر عن حرب غـزة. في المقابل؛ فإن نهج إدارة بايدن الحذر مع الحوثيين والذي لم يثبـت فاعليته، حفز ترامب على إطلاق حملة عسـكرية جوية أكثر صرامة، في منتصف مارس/آذار، لتقويض قدرات الحوثيـين وقطع الإمدادات البحرية والبرية التي تزود الجماعة بالأسلحة الإيرانية، وهي حملة سـبقها قرار ترامب بإدراج الحوثيين على قائمة المنظمات الإرهابية.

ومع ذلك؛ تدرك واشـنطن أن إلحاق هزيمة حاسـمة بالحوثيين لن يكون سـهلا ولا سريعا وذلك بسبب صعوبة التضاريس والطبيعة القبيلة في اليمن والتي باتت جزءا من تحالفات الحوثيين. ومن ثم فإن تقويض قدرات الحوثيين، وإنهاء موقعهم كأحد أنشـط وكلاء إيـران يتطلب عملية عسـكرية برية واسـعة تقوم بها القوات اليمنية الموالية للسعودية والإمارات.

وعلى الرغم من أن هذه القوات غير موحدة ومتصارعة فيما بينهـا، إلا أن جهودا تبذل مؤخرا مـن قبل الولايات المتحدة وبريطانيا لتحسـين قدراتها وتأهيلها كي يمكنها هزيمة الحوثيـين، لكن ما زالت حدود تلـك الهزيمة غير مؤكدة، ومن المحتمل أن تقتـصر على إحباط قدرتهم على تهديـد الملاحة ومن ثـم التركيز على انتـزاع الحديدة من سيطرتهم. بينما تقف السعودية في حالة تردد بين حاجتها لاغتنام الفرصة الدولية والتخلص عسكريا من وكيل إيران عـلى حدودها الجنوبية، وبين القلق مـن تبعات مثل هذه العملية التي ستضع الأراضي والمنشآت الحيوية السعودية مجددا في مرمى استهداف الحوثيين.

ثمة أعداء كثر للحوثيين يرون الفرصة سانحة للتحرك ضدهم ودفع قطعـة الدومينو باتجاه اليمن، لكن ليس من المؤكد أن خيارهم نهائيا، خاصة أن رد فعل حلفاء الحوثيين يجـب أن يؤخذ في الاعتبار. من جهة أخـرى، قد لا يكون الحوثيون في مقدمة الأولويـات الدولية حاليا، وقد تحرك المصالح الدولية، خاصـة الأمريكية، قطعة دومينو أخرى، بما يمنح الحوثيين مزيدا من الوقت لإعادة حساباتهم.

العراق: بين مطرقة الضغوط الأمريكية وسندان نفوذ إيران

يواجـه العـراق تحديـات بـارزة بسـبب الأوضاع الجيوسياسـية المتغيرة بعد سقوط الأسـد؛ فبينما تبدو إيران أضعف وقابلة للتراجع أمام الضغوط الأمريكية، فإن العراق سـيكون ساحة أساسية لممارسة هذه الضغوط. قد يدفع هذا إلى إعادة النظر في الانسحاب التدريجي للقوات الأمريكية من العراق والمخطط له أن يتم بحلول سـبتمبر/أيلول من العام الجاري.

إذ تتخوف واشنطن من أن الفراغ الذي قد يخلفه رحيل قوات التحالف سيمنح إيران والجماعات الموالية لها فرصة لتعزيز نفوذهـا وتعويض ما فقدته في سـوريا. وبينما من المرجـح أن يواصل ترامب تقليص الوجود العسـكري الأمريكي في العراق فإنه سـيحافظ على تواجد عسكري كاف لمواجهة جهود إيران لاستعادة نفوذها الإقليمي.

سـتمارس الولايات المتحدة ضغوطـا على الحكومة العراقيـة لتجبرها عـلى الحد من علاقاتهـا مع طهران، وضمان عدم خرق العراق للعقوبات على إيران. ومن المرجح أن تتخذ واشـنطن تدابير اقتصادية صارمة لتقويض نفوذ الجماعات والشـخصيات العراقية المدعومـة من إيران، وعلى رأسها الحشـد الشعبي. وسـيكون من المتوقع أن تتخذ طهران في المقابل نهجـا يرتكز على تجنب المواجهة في العراق، وأن يواصل حلفاؤها تجنب التعرض للضربات الأمريكية بوقف الكثير من أنشـطتهم وتقليص انتشارهم العسكري في البلاد، لتجنب إثارة القوات الأمريكية.

لبنان: تراجع حزب الله وسباق إقليمي ودولي لاستعادة النفوذ

بالرغم من الخسـائر التي تكبدها حزب الله في الحرب إلى جانب سـقوط نظام الأسد، فإنه لا يزال يتمتع بقدرات قتالية معتبرة، كما أن نفوذ الحـزب في المجتمع والنظام السـياسي اللبناني من الممكن إعـادة ترميمه لكن بمزيد من الوقت. ومع ذلك فإن خِسـائر حزب الله الاستراتيجية لا يمكن تجاهلها، فقد شـكل فقدان الطريق البري لتوريد الأسـلحة والإمدادات الإيرانية عبر سوريا ضربة حاسمة لاستعادة عافية الحزب عسكريا.

كـما لم يتمكن الحزب من ممارسـة أي نفوذ واضح على العملية السياسـية الناشـئة في لبنان سواء اختيار الرئيس أو ترشـيح رئيس الوزراء، والأسـوأ من ذلك انهار التحالف السياسي لحزب الله مع معظم الفصائل المتحالفة معه سـابقا وعلى رأسـهم التيار الوطني الحر، ما تسبب في تقويـض الغطاء السـياسي العابـر للطائفية والذي اسـتخدمه الحزب منذ فترة طويلة للمشاركة السياسية. وعلى المسـتوى الاجتماعي فإن صعوبـة تلقي تمويلات كافية ستلقي بظلالها على قدرة الحزب على إعادة الإعمار وتعويض حاضنته الشعبية.

انعكست الانتكاسـات التي تعرض لها حزب الله على المؤسسـات الحزبية التقليدية في لبنان والتي بادرت إلى تعزيز نفوذها داخليا مع تحول خطابها السياسي نحو نزع سلاح الحزب كمسألة مركزية ستشـغل الحياة السياسية اللبنانيـة في المدى القريب، خاصة وأن الوجود المسـتمر لإسرائيل في جنوب لبنان والضغوط الأمريكية المشـددة سيحفزان القوى الداخلية السياسية إلى ممارسة الضغوط على الحزب للتخلي عن الترسانة المتبقية شمال الليطاني.

الأردن: الفرص تتساوى مع التهديدات

منح سقوط نظام الأسـد الأردن فرصة التخلص من شبكات تهريب الأسـلحة والمخدرات والمجموعات الموالية لإيران التي كان يسـتخدمها النظام السـوري على طول الحدود بين البلدين. ومع ذلك تتخـوف المملكة من عملية الانتقال المحفوفة بالمخاطر في سـوريا واحتمالات التعثر وما يمكن أن يصاحبهـا من موجة نزوح جديدة وتهديدات أمنية متجددة للأردن. بالإضافة إلى التأثير المحتمل لوصول هيئة تحرير الشـام والفصائل الإسلامية إلى السلطة في سـوريا والذي قد يؤدي إلى تشـجيع الحركات الإسلامية في الأردن وفي مقدمتها الإخوان المسـلمين؛ مما يزيد من الضغوط الشـعبية على السلطة السياسـية وسط حالة الاضطرابات التي شهدها الشارع الأردني في أعقاب السابع من أكتوبر.

من المتوقـع أن تركز الأردن جهودهـا في تعزيز أمن الحدود مع سوريا ومراقبة أنشطة بقايا الجماعات المسلحة الموالية لإيران أو العودة المحتملة لتنظيم الدولة الإسـلامية "داعش"، وهو أمر سـيكون قادة دمشـق الجدد وتركيا شركاء فيه. وعلى الصعيد الداخلي، ستواصل المملكة جهودا تتنوع بين الاحتواء وتصعيد القمع للجهات الفاعلة وخاصة جبهة العمل الإسلامي (الإخوان المسلمين).

بينما ستسـعى عمان إلى الاسـتفادة مـن الفرص الاقتصاديـة، إذ تمثـل العـودة التدريجية لمـا يزيد عن مليون لاجئ سـوري إلى بلادهم تخفيفا لبعض الضغوط الاقتصادية المحلية، وكذلك فإن استعادة العلاقات التجارية والاقتصادية مع سـوريا سـتعني إعادة تفعيل المسارات البرية الحيوية بين البلدين والتي تنقل الصادرات من أوروبا وتركيا إلى دول الخليج، كما أن المسـاهمة في جهود إعادة الإعمار ستمثل رافدا آخر لدعم الاقتصاد الأردني.

ومع هشاشـة الوضع الاقتصادي للبلاد، والتحديات المتنوعة بما في ذلك إجراءات حكومة نتنياهو المتطرفة في الضفة الغربية، فإن تحرك قطع الدومينو نحو الأردن تبدو مسألة تثيرها الرغبات أكثر من كونها تستند لجهود قائمة بالفعل. فما زال النظام مدعومـا من قبل الولايات المتحدة بصورة واسعة، كما أنه يستند لقاعدة دعم عشائرية قوية، في المقابل لا تتبنى القوة المعارضة الرئيسية، والتي تمثلها جبهة العمل الإسـلامي، مشروعا لتغيير النظام أو الثورة عليه، وقد أظهـرت بصورة عامة توجهـا رافضا لدعوات الصدام مع النظام على خلفية حرب غزة.

مصر: تعقيدات جيوسياسـية وتهديدات لاسـتقرار النظام

يرتبط استقرار النظام السياسي في مصر إلى حد كبير باستمرار الدعم الخارجي ومواصلة النظام هيمنته الأمنية الصارمة، ولا يبدو أن التغير الهائل في المشـهد السـوري قد تسـبب في تغيير أي من هذين العاملين على الأقل في المـدى القريب. وعـلى الرغم من صعوبـة التنبؤ باندلاع انتفاضة شـعبية مماثلة لتلك التـي أطاحت بنظام مبارك في 2011، فإن الأزمات البنيوية السياسـية والاقتصادية تعزز احتمالات تصاعد الاضطرابات والاحتجاجات العامة، مما قد يهدد حالة الاسـتقرار الهشة للنظام في المستقبل المنظور.

سلطت الحرب الإسرائيلية على غزة الضوء على طبيعة العلاقـات الأمريكية مع مصر باعتبارها ركيزة أساسـية للسياسة الإقليمية لواشنطن، وكذلك فإن الولايات المتحدة والعديد من الجهات الفاعلة الدولية والإقليمية باتت تنظر إلى استقرار مصر في الوقت الراهن باعتباره عاملا حاسما لتحقيق الاستقرار والتوازن الإقليمي. ومع ذلك لا تزال مصر تواجه تحديات إقليمية معقدة تمـس مصالحها الحيوية بشـكل مباشر بما يشـمل الصراع الحالي في السـودان والأزمـة الليبية والصراع في القـرن الأفريقي، إلى جانب التهديدات التـي خلقتها الحرب المدمـرة على قطاع غزة، خاصة مخطط التهجير والتوتـر مع الاحتلال الإسرائيلي؛ مما أدى إلى خلق بيئة جيوسياسية غير مستقرة بالإضافة إلى احتمالات تزايد موجات النـزوح عبر الحدود المصرية وهو ما يعني ضغوطا أمنية وتكاليف اقتصادية.

ليبيا.. روسيا قد تحول تركيزها لجنوب المتوسط

بالرغم من أن التغير الجيوسـياسي في سـوريا مثل انتكاسة لروسـيا ولكن الأخيرة جعلت منه نقطة انطلاق لمواصلة التحول الذي بدأت فيه قبل عام من سـقوط الأسد عبر تحويل قوات وأسـلحة إلى شرق ليبيا، وهو الأمر الذي زادت وتيرته بعد انهيار نظام الأسـد، إذ أرسـلت روسيا معدات عسـكرية من قاعدة حميميم السورية إلى قاعدتي الخادم والجفرة الليبيتين.

ويشير هذا الواقع العسكري الجديد إلى تعميق محتمل للعلاقات بين موسكو والجنرال خليفة حفتر الذي تسيطر قواته على شرق ليبيا. وتستهدف موسكو من هذا التحول العسكري إلى جنوب البحر المتوسط، استخدام ليبيا كجسر إلى أفريقيـا ومنصة لتزويد قوات فيلـق أفريقيا (وريث مجموعة فاغنر) المنتـشرة في جميع أنحاء أفريقيا، وهو جزء من استراتيجية أوسـع لموسكو لتعزيز نفوذها داخل القارة، خاصة في منطقة السـاحل وعلى سـاحل البحر الأحمر في السودان.